القضايا النقدية والبلاغية للكَلاعِي في كتابه"إحكامُ صَنعة الكلام"

- مقاربة التداولية-

أ. خيرة عمامرة

جامعة عمار ثليجي بالأغواط - الجزائر

تمهيد:

نسعى من خلال هذه المداخلة إلى محاولة استكشاف أهم القضايا النقدية والبلاغية التي قدمها نقاد الأندلس، وأغربوا فيها لإحكام صنعة الكلام المنثور منه والمنظوم، في عصر حاول فيه حُكامه "الإفادة من العقلية الأندلسية حيث اجتمع لهم في حضرتهم بمراكش الكثير من الكتّاب، وفرسان البلاغة، وأقطاب العلوم حتى أشبهت حضرتهم حضرة بني العباس في صدر دولتهم"[1].ولأهمية الكتابة في هذا العصر نجد عبد الغفور الكَلاَعي الإشبيلي في القرن السادس قد خصها بمُؤلَف تناول فيه أهم الآليات البلاغية والنقدية المتعلقة بصنعة الكلام المنثور سماه بـــإحكام صنعة الكلام (في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس)، والذي تأتي أهميته بالدرجة الأولى بما احتواه من آراء نقدية وبلاغية، كان أكثرها خاصا بالمؤلف، ومن استنباطه واختراعه. ثانياً إشاراته إلى ما يعضدُ فكرة شعور الأندلسيين بتفوقهم وتقدمهم.

وعملنا في هذه الدراسة سيتمثل في محاولة إجراء مقاربة بين الإجراءات النقدية ذات الطابع التداولي* المعاصرة وبين تجلياتها التراثية في كتاب الكَلاَعي مع توخي عدم لي أعناق النصوص، أو إخضاعها إلى الطروحات النقدية المعاصرة. وذلك أن التداولية باعتبارها منهجا نقديا جديدا قد تجاوزت محدّدات الدلالة إلى دراسة مدى إمكانية الكشف عن قصدية المتكلّم من

خلال إحالة الجملة أو النّص إلى السياق التداولي لتحديد مدى التّطابق واللاتطابق بين الدلالة وظروف السياق[2].

وقد اعتمدت في انجاز هذه الدراسة -إلى جانب المدونة مجال التحليل إحكام صنعة الكلام (في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس) للكلاعي - على جملة من المصادر والمراجع أهمها: النقد الأدبي في الأندلس (عصر المرابطين والموحّدين) (شريف علاونة)، التصنيف اللغوي والأدبي في عصري المرابطين والموحدين (كوكة فاتن)، إضافة إلى مراجع في المقاربة التداولية .

1- التعريف بالمؤلِف والمؤلَف :

هو أبو القاسم محمد عبد الغفور الكلاعي الإشبيلي" ولد في أواخر القرن الخامس الهجري(485-490هـ)وتوفي في أواسط القرن السادس (545هـ -550هـ)"[3]. نشأ في بيت من بيوت العلم والثقافة والحسب والرياسة، وأخذ عن شيوخ عصره وأئمة زمانه، وقد ظهرت عليه علامات النبوغ مبكرا حتى قال فيه ابن خاقان إن له" شبيبة ألحقته بالكهول" .ومن آثاره التي خلدت ذكره نذكر (الانتصار لأبي الطيب)، و(رسالة الساجعة والغريب معارضة لأبي العلاء المعري)، و(السجع السلطاني)، و(إحكام صنعة الكلام (في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس))[4]، وتأتي أهمية هذا الأخير من حيث جمعه بين الجانبين النقدي والبلاغي،إلا أن الجانب البلاغي هو الذي احتلَّ القسم الأكبر من الكتاب، ولكنه ضم أيضاً بعض الإشارات النقدية المتعلقة بالنماذج المختارة من أدب الكُتَّاب الذين أوردهم.كما تعود أهميته أيضا إلى مقارنته بين المشارقة والأندلسيين، وتأييد فكرة التفوق الأندلسي، أو المجاراة في بعض المواضع، وهو بذلك يؤيد ما ذهب إليه ابن بسام الذي أراد أن يثبت للأندلسيين أن لهم موروثاً يَستَحق أن يَعْتَزُوا به[5].

أما موضوع هذا الكتاب فوزعه على مقدمة وفصلين، تناولت المقدمة أسباب تأليفه للكتاب المتمثلة في الرد على من انتقص كفاءته الأدبية في قوله "**ولما كان في قَوله ردٌّ شهادَتِك التي تبرَّع بها بارعُ سيادَتِك، رأيتُ أن أُصدّق حُسن انتقادِك، وأحق جميل اعتقادِك بهذه الرسالة التي ابتدَعتُها قالبا يُفرِغُ عَليه واخترعْتُها إمامًا يُفزع إليه، تُحرز ما أنعمَ الله به على الإنسانِ من علم البلاغة**

والبيان"[6]. أما الفصل الأول فقد خصصه للكتابة وآدابها. أما الباب الثاني فقد تحدث فيه عن ضروب الكلام المختلفة.

2- العناصر التداولية للتواصل في العملية الإبداعية وضوابطها :

لم تخل الدراسات العربية على اختلاف مشاربها من بيان دور المتكلم في صياغة الخطاب وإنتاجه، والاعتداد بالمتلقي في العملية التواصلية، إلى جانب الإلمام بكل العناصر الفاعلة في التواصل، ومدى مطابقة الخطاب لمقتضى السياق أو مخالفته ...وتلك هي أهم القضايا التي دارت حولها المقاربة التداولية [7]و"المقاربة التداولية هي تلك المنهجية التي تدرس الجانب الوظيفي والتداولي والسياقي في النص أو الخطاب، وتدرس مجمل العلاقات الموجودة بين المتكلم والمخاطب، مع التركيز على البعد الحجاجي والإقناعي وأفعال الكلام داخل النص." [8] .

وهذا ما سنحاول استقصاءه في كتاب إحكام صنعة الكلام للكلاعي، الذي اتخذ من فن النثر موضوعا لدراسته وذلك في قوله:"**وإنما خصصت المنثور لأنه الأصل الذي أمِن العلماء – لامتزاجه بطبائعهم- ذهابَ اسمه فأغفلوه، وضَمن الفُصحاء – لغلبته على أذهانهم- بقاءَ وسمِه فأهملُوه.ولم يُحكموا قوانينه، ولا حَصرُوا أفانينه**"[9]. ولا يتوقف في تحليله للخطاب عند حدود الجملة (في اللسانيات الصورية)، وإنما يتعداها إلى النص وما يتعلق به من مقامات تواصلية مختلفة. والدليل على اهتمامه بالخطاب، ما أورده في معرض حديثه على أقسام الخطاب في قوله" **الخطاب ينقسم إلى ثلاثة أقسام :...**" [10].و لأن" التداولية إضافة لعنايتها بتحليل الخطابات الشفوية، فإنها تُعنى كذلك بتحليل هذا النمط من الخطابات المكتوبة بوصف وظائف الأقوال الكلامية، وخصائصها خلال إجراءات التواصل بشكل عام"[11]. فإن هذا سيفسح لنا المجال لمقاربة آرائه النقدية والبلاغية المتعلقة بالخطاب النثري في ضوء المقاربة التداولية.

2-1- المرسل: وهو يمثل الكاتب عند الكلاعي الذي يشترِطُ فيه إلى جانب امتلاكه للكفاءة اللغوية المتمثلة في تمكنه من الكتابة، أن يمتلك كفاءة تواصلية تُنبني على أساس معرفة وجوه التناسب الاجتماعي والموقفي للأحداث الكلامية [12].وتتجسد في عدة مظاهر منها:

أولا: تحسين آلات الكتابة مثل الاعتناء بالمداد، وإجادة القلم"**لأنه ترجمانه ولسانه وسنانه**"[13]، والدّويّ(ج دواة)، ولون الكاغد، والاعتناء بالجانب الشكلي للمكتوب من خلال ترتيب الخط، وتسوية البطاقة، وختمها. إلى جانب الثقافة الموسوعية التي تولدها مصاحبة الكتب في قوله:"**أن ينتخب جلساءهُ وأصحابهُ، ويجعل أحظاهم عنده كتابهُ** "[14].

ثانيا: الاهتمام بملاءمة العنوان للغرض من موضوع الكتابة، ويتجلى **في قوله:" فإن عنونت بقولك (الواجد لوجدِه –أزاح الله أرزاءَها،فلان) دلَّ على أنَّهُ في تعزية، فإذا عنونت بقولك: (رهينُ شُكره، اللاّهج بتطييب ذكره فلان) دلّ على أنه في شُكر"** [15]. والملاحظ عند الكلاعي أن صيغة العنوان تتغير بتغير الزمان فكانت قديما بصيغة (**من فلان**) (يعني اهمال المتلقي)، أما فيما بعد فقد أضافوا عليها عبارة (**من فلان إلى فلان**)أي الاهتمام بكل من طرفي الخطاب .إلى جانب اختلافها من حيث الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها المخاطَب. ويختم كلامه عن العنوان بقوله:" **والعنوان موطنٌ من مواطنِ ذكر كُنية المخاطَب فلا يجب أن يخطِّط نفسَه في كتابٍ، ولا يذكر كُنيته في الخطاب**"[16] .وذلك قصد تحديد وجهة الخطاب وجهة معينة .

ثالثا: مراعاة ترتيب أجزاء الخطاب (الرسالة) وما يجب مراعاته من سياقات (نصي، و نفسي، واجتماعي) في كل منها، مثل: الاستفتاح، وتصلية، والصدور، والإشارة في الصدور إلى الغرض المذكور، التخلص،و الدعاء، وأخيرا السلام [17].

2-2- المتلقي : لقد احتل المتلقي عند الكَلاعي أهمية كبيرة، ويتجلى ذلك من خلال حثّ الكاتب على مراعاة كل ما له علاقة بالمخاطَب في الخطاب .وبصنيعه هذا فإنه لم يخرج عن دعوى البلاغيين العرب والنقاد في اعتبار مراعاة حال المخاطَب حجر الأساس في بلاغة الخطاب وجودته،وإخفاق المتكلم في ذلك يؤدي إلى الفشل التداولي للخطاب.ومن أمثلة ذلك في كتاب إحكام صنعة الكلام، قول الكلاعي :" **فوطن الإسهاب ما يكتب به إلى عامّة...فحينئذ يجب على الكاتب أن يُبدئ ويُعيد، ويحذِّر بالتّكرير، وينذرَ بالتّرديد، لتكون رُقى مواعظه أولَجَ في المسامع، وحجَّته أظهر على مُختَلَفِي الأفْهام والطَبائع**"[18]. ويقول أيضا:" **أما الإيجازُ فيخاطَبُ به أهل الرُّتب العالية، والهمم السامية، لأن الوجيز عند هذه الطائفة أَنفقُ من الإطالة، والإشارة لديهم أنفعُ من تطويل المقالة، وما ذلك إلا لبُعد هممهم، وتفسُّح خواطرهم**"[19] .فأنت تلاحظ أن الكلاعي قد قسم الخطاب إلى إسهاب

وإيجاز على حسب طبقة المتلقي، وقدرات استيعابهم له .فالإيجاز للخاصة وعلة ذلك أن :**"الأصل في ذلك التخفيف عن أهل الممالك، لأن قراءة الكُتب وسماعها كُلفة، والواجب تخفيف الكُلف عن الأكابر والملوك"**[20]. أما الإسهاب والإطالة فتكون للعامة من المخاطبين.

ومن أمثلة بناء الخطاب على أساس الطبقة الاجتماعية للمتلقي قوله في مخاطبة أهل الكفر في قوله:" **أن يُترك تبجيلهم، ويُتجَنب ترفيعهم وتأهيلهم، وأن يُنظروا بعين الاحتقار ويُعتمدوا بالذِّلة والصِّغار**"[21]. ويعني ذلك أن تشكل الخطاب يُصطبغ بأحوال المتلقي المختلفة."لأن التّداولية قد جاءت لتردّ مفهوم الشكل الواحد للمعنى، وتنادي بتقويض فكرة الاعتماد على الملفوظ اللساني كعلامة وحيدة، أو كعنصر وحيد لتشكيل النّص، وتحليل بنيته وفهمه من قبل المتلقي"[22].

2-3- الخطاب: يحظى الخطاب في كتاب الكلاعي"بالأسبقية والحضور الدائم، لأنه مدار التفاعل بين المرسل والمتلقي ونتاج التفاعل بينهما"[23] ومن بين المواضع التي أشار فيها إلى ذلك قوله:" **الخطاب يُقسم إلى ثلاثة أقسام:منه ما رفل ثوبُ لفظه على جسدِ معناه، وهذا هو الإسهاب، ومنه ما ثوب لفظه كالمؤمن، وهذا هو الإيجاز، ومنه ما خيط ثوبُ لفظه على جسد معناه، وهذا هو المساواة، ولكل قسم من هذه الأقسام موطن يصلح فيه، ومقام يختص به** "[24]. وهذا ما يؤيد مقولة لكل "مقام مقال" في البلاغة العربية، الذي يأتي مفهوم التداولية ليغطيه بطريقة منهجية منظمة[25]. أما في معرض حديثه عن أنواع البديع فيقول:"**...وجعلت أبحث عن ضروب الكلام فوجدتها على فصول وأقسام منها: الترسيل، ومنها التوقيع،...**"[26] .وفي ضروب السجع فقال:"**...الأسجاع فوجدتها على ضروب وأنواع. فمنها ما يجب أن يسمى المنقاد، ومنها ما يجب أن يسمى المضارع،...**"[27] .

2-4-القناة: ركز الكلاعي حديثه حول شكلها الكتابي، وذلك من خلال إشارته إلى وجوب اعتناء الكاتب بآلات الكتابة المتمثلة في المداد، وإيجادة القلم، والدواة، وترتيب الخط وتسوية البطاقة ...إلخ.ومن ذلك قوله في الخطّ: "**إعجام الخطّ يمنع استعجامه، وشكله يُؤمِن من إشكاله**"[28]. وما يفهم من كلامه وجوب العناية بالجانب الشكلي للخطاب حتى يؤدي الغرض المنوط به.

2-5- السياق: ويقصد بالمقام"مجموعة العناصر التي تتوفر في موقف تخاطبي معين وأهمها زمان التخاطب ومكانه وعلاقة المتكلم بالمخاطب وخاصة الوضع التخابري بينهما، أي مجموعة المعارف التي تشكل مخزون كل منهما أثناء عملية التخاطب" [29].وقد ركز الكَلاَعي على المقام في معرض حديثه عن صيغة العنوان في قوله:"**والذي أختار أن يُكتب عن الآمر إلى المأمور: من الأمير فلان إلى فلان أعزه الله. فيقدّم في اللفظ من قُدّمت كفايته أو عنايته. وأن يُكتب إلى مَن هو أرفعُ منه، فيبدأ بذكر خُططه ثم يأتي بكُنيته ثم يدعو له بما يُشاكله من الدُّعاء...**"[30]. ومن قوله في ملاءمة الدعاء للسياق الخطابي قوله:" **مما يجب على الكاتب أن يُتحرى في الدُّعاء الألفاظ الرّائقة والمعاني اللائقة، ويتوخّى من ذلك ما يُناسب الحال، ويُشاكل المعنى ويوافق المخاطِب، فإن خاطبتَ رئيسًا قلت في ذلك ما شاكل قولهم« والله ينصر أعلامه، وينَفِذُ في السّبعة الأقاليم أحكامه». وإن كنت معزّياً ... وإلى كثير مما في هذا عليه دلالة**"[31]. ومن أمثلته أيضا قوله:" **وقالوا:«رداءة الخطّ قذى في عين القارئ ».وإذا كان الأمر على ذلك وجبت المحافظة عليه ومعالجة أحكامه،...فقد قالوا: «النقط الكثير في الكتاب استعياء للمكاتَب، والتخطيط الكثير استخفاف به»**"[32]. فالواجب مراعاة المخاطب في إنشاء الخطّ حتى يحقق الخطاب الهدف المنوط به.

ويمكن توضيح هذه العناصر التداولية للتواصل في كتاب "إحكام صنعة الكلام" للكلاعي في المخطط التالي :

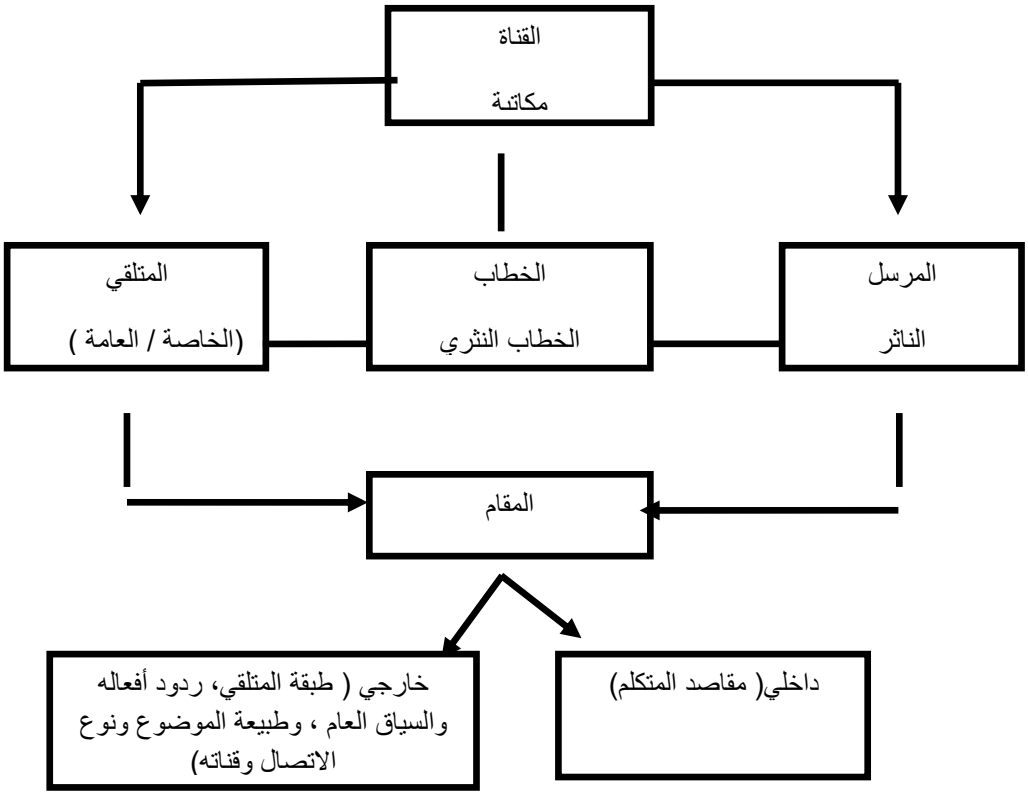

وما يمكن استخلاصه من خلال عرض عناصر التواصل للعملية التواصلية الإبداعية عند الكَلاعي، والآليات التداولية المؤطرة لهذه العملية المتمثلة في مبدأين أساسيين من المبادئ التداولية، وهما مبدأ الملاءمة (ملاءمة الخطاب للسياق بكل تمظهراته)، ومبدأ التأدب (مراعاة الطبقة الاجتماعية للمخاطَب) الذي تجلى على وجه الخصوص في صياغة العنوان، واستعمال الكُنى، وصيغة الدعاء الملائمة لكل طبقة. واللذان بدورهما يولدان مبدأين آخرين هما: مبدأ الإفادة ومبدأ الوضوح المتعلقين بالهدف من العملية التواصلية .

خلاصة :

نخلص في آخر هذه الدراسة أن الكَلاعي في كتابه" إحكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس) "قد سلك في معالجته للمسائل النقدية والبلاغية مسلكا وظيفيا. ويظهر هذا

جليا في معالجتهم للآليات التداولية، التي من شأنها أن تؤطر العملية الإبداعية حتى تحقق الهدف المنوط بها،وتتمثل أساسا في جانبين: أولا الشرط البنيوي ويتعلق بحسن صياغة الألفاظ، وإنتقاء المعاني الملائمة لها،أما ثانيا فربط الشرط البنيوي بالجانب الاستعمالي المتعلقة بقصد المتكلم، وحال المتلقي النفسية والاجتماعية،والتي تجسدت في مبدأين تداوليين هما: مبدأ الملاءمة، ومبدأ التأدب، والتي من شأنها المساهمة في إنجاح التواصل، وإكسابه الصفة التداولية. وبالتالي تحقيق الإفادة والوضوح لدى المتلقي .

الهوامش:

(1) **علاونة(شريف)**، النقد الأدبي في الأندلس (عصر المرابطين والموحّدين)، وزارة الثقافة، الأردن، ط1(2005)، ص15.

* هي" ترجمة للمصطلح الفرنسي(**pragmatique**)،والمصطلح الانجليزي (**pragmatic**)، وهو يختلف عن المصطلح (**pragmatisme**) الذي «يعنى ذلك المذهب الفلسفي التجريبي،الذي تجاوز المذهب العقلاني وطور الاتجاه التجريبي »[2].وترجم هذا المصطلح إلى الدراسات العربية بعدة ترجمات منها :علم التخاطب،المقاميات ،علم المقاصد، الانفعالية، البرغماتية اللغوية، الذرائعية اللغوية ،...وغيرها من المصطلحات [*]،التي هي مدلولات لدال واحد.أما المصطلح الأكثر شيوعا فهو **"التداولية"**الذي اقترحه الدكتور طه عبد الرحمٰن". عمامرة(خيرة)،رسائل لسان الدين بن الخطيب في كتابه ريحانة الكتّاب ونجعة المنتاب- مقاربة تداولية-،(مخطوط) ماجستير، الأغواط،(2011/2010)، ص13.

(2) ينظر:**حمو الحاج(ذهبية)**،إشكالية النص في اللسانيات التداولية، مجلة(سمات)، البحرين، المجلد(3)،العدد(1)، جوان 2015، ص 50.

(3) **(الكلاعي)** أبو القاسم محمد عبد الغفور الإشبيلي، إحكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس،تح: محمد رضوان الداية، عالم الكتب، لبنان، ط2(1985)ص13.

(4) ينظر: (الكلاعي)، إحكام صنعة الكلام، ص16-17.

(5) ينظر: **كوكة (فاتن)**، التصنيف اللغوي والأدبي في عصري المرابطين والموحدين،منشورات الهيئة العامة للمنشورات السورية،دمشق،ط(2012)، ص383.

(6) المصدر السابق، ص39.

(7) ينظر: **بوجادي(خليفة)**، في اللسانيات التداولية(مع محاولة تأصلية في الدرس العربي القديم)، بيت الحكمة، الجزائر،ط1، (2009)، ص257 .

(8) **الحمداوي (جميل)**، التداوليات وتحليل الخطاب، مكتبة المثقف(almothaqaf.com)،ط1،(2015)،ص9.

(9) الكلاعي ،إحكام صنعة الكلام، ص39 .

(10) نفسه، ص 97.

(11) **فضل (صلاح)**،بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية للنشر لونجمان،مصر،ط1، (1996)،ص6 .

(12) **العبد(محمد)**، النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ط1،(2005)،ص63.

(13) (الكلاعي)، إحكام صنعة الكلام، ص 49 .

(14) نفسه، ص 52 .

(15) نفسه، ص 60 .

(16) نفسه، ص 62.

(17) ينظر:نفسه، ص 63وما بعدها.

(18) نفسه، ص 97-98.

(19) نفسه، ص 98.

(20) نفسه، ص99 .

(21) نفسه ص93

(22) **حمو الحاج(ذهبية)**،إشكالية النص في اللسانيات التداولية، مجلة(سمات)، البحرين، المجلد(3)،العدد(1)، جوان 2015، ص 50.

(23) **العمري(محمد)**، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ،إفريقيا الشرق، بيروت، لبنان،ط(1999)، 304.

(24) (الكلاعي)، إحكام صنعة الكلام، ص97.

(25) ينظر: فضل(صلاح)،بلاغة الخطاب وعلم النص، ص26.

(26) نفسه، ص102.

(27) (الكلاعي)، إحكام صنعة الكلام، ص103.

(28) نفسه، ص103.

(29) **المتوكل (أحمد)**،المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي – الأصول والامتداد-، دار الأمان، الرباط، ط1(2006)، ص172.

(30) (الكلاعي)، إحكام صنعة الكلام، ص61.

(31) نفسه، ص 82.

(32) نفسه، ص103.